الفصل الأول

الدين والفلسفة

obeikandl.com

١- تمهيد: مقولات شائعة:

لقد شاع بين العامة منذ قرون متطاولة مقولات عديدة حول الفلسفة، وحول صلتها بالدين، وترسخت هذه المقولات فى الأذهان ولا تزال حتى الآن تعمل عملها لا فى محيط العامة فقط، بل فى عقول البعض ممن ينتسبون إلى الثقافة، وهذا ما دفع أفلاطون قديما إلى القول بأن الجمهور ميال إلى الاعتقاد بأن الفلسفة عديمة النفع.[١]

ومن بين المقولات الشائعة فى هذا الصدد أن الفلسفة سفه، وأنها مرادفة للإلحاد، أو أنها دين من لا دين له، ويشبه البعض عمل الفيلسوف بمن يبحث فى حجرة مظلمة عن قطة سوداء لا وجود لها.

وقيل أيضًا عن المنطق الذى هو أحد العلوم الفلسفية: من تمنطق فقد تزندق، وعندما بدأ الشيخ محمد عبده دراسة المنطق وشى الواشون إلى والده بأن ولده يدرس علوم الضلالات التى توقع فى الشبهات وتزلزل المعتقدات، فسافر الوالد إلى ولده فور سماعه نبأ هذه الكارثة ليصل إليه فى القاهرة فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل محذرًا منذرًا بالويل والثبور وعظائم الأمور، كما يروى الشيخ محمد عبده نفسه فى مقال له فى صحيفة الأهرام عام ١٨٧٧.[٢]

وقد شاع فى عقول العامة أيضا أن الفلسفة تعبير عن كل شىء مبهم وغامض مما لا سبيل إلى فهمه ولا جدوى من الاشتغال به. فهذا الاشتغال بالفلسفة -فى نظرهم- يعد جهدًا ضائعًا وإنهاكًا للفكر لا طائل من ورائه. ومن هنا فإن العامة عندما يسمعون أحدًا يقول كلامًا غير مفهوم يعلقون على ذلك بقولهم: إنه يتفلسف.

وقد علق أزفلد كولبه على ذلك كله بقوله:

"إن الأصوات التى نسمعها اليوم معلنة قرب انتهاء الفلسفة، أو الزعم بأنها من الأمور الكمالية التى لا نفع فيها إن هى إلا أصوات تصدر عن جهل بماهية الفلسفة ومعناها ورسالتها التى اضطلعت بها فى عصورها المختلفة".[٣]

ومن الملاحظ أن الكثيرين -على الرغم من نفورهم من الفلسفة والتفلسف- يستخدمون فى تعبيراتهم اليومية كلمة "فلسفة" للتعبير عن اتجاهاتهم العامة، فيقال مثلاً: فلسفتى فى الحياة

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص١٠٥.

(٢) الأعمال الكاملة الإمام محمد عبده ج٣ ص١٥ وما بعدها -تحقيق د. محمد عمارة- بيروت ١٩٨٠.

(٣) أزفلد كولبه: المدخل إلى الفلسفة ص٥ - ترجمة د. أبو العلا عفيفى - القاهرة ١٩٤٢.

أو فلسفتى فى عملى هى كذا أو كذا، ويقنع الكثيرون بهذا الاستخدام السطحى للفظ الفلسفة، إما تجملاً فى الحديث، أو تظاهرًا بالثقافة أمام الغير عن طريق استخدام كلمات مبهمة مثل كلمة فلسفة، ولا يتعدى الأمر هذا النطاق.

وسبب هذا الخلط فى عقول غالبية الناس يرجع فى نظرنا إلى عاملين:

١- انعدام التحديد الدقيق والرؤية الواضحة الواعية لمفهوم الفلسفة فى أذهان الكثيرين.

٢- الميل إلى إصدار الأحكام المطلقة على المذاهب الفلسفية المختلفة وتعميم هذا الحكم على الفلسفة من حيث هى فلسفة.

٢- الفلسفة ظاهرة إنسانية:

والحق أن الفلسفة ظاهرة إنسانية عامة. فالتفكير الفلسفى ليس –كما يتصور البعض– احتكارًا للفلاسفة أو للمشتغلين بالفلسفة، فإنسان بوصفه إنسانًا يتميز عن غيره من الكائنات بعقل وهبه الله إياه ليفكر به، والتفلسف فى أبسط معانيه ليس شيئًا آخر غير استخدام هذه العقل: "فالحيوان يرى ويسمع، بل ويتذكر، ولكنه لا يستخدم هذه القوى إلا فى حاجاته الوقتية، أما الإنسان فإنه يرى ظواهر الكون على اختلاف أنواعها فيتصورها، ويكون له فيها رأيًا، ثم يجتهد فى تعرف عللها وعلاقة حقائق الكون بظواهره، فإن فعل هذا قلنا إنه يتفلسف." [١]

وعلى ذلك فإنه لا يوجد فى الغالب إنسان لا يتفلسف، أو على الأقل فإن لكل منا فى حياته لحظات يكون فيها فيلسوفًا ينظر ويتأمل ويحاول الوصول إلى أعماق الأمور، وليست الفلسفة إلا نتاجًا للنظرة الفاحصة للعقل البشرى إلى هذا الوجود، وتطلعًا مشروعًا من جانب العقل إلى إدراك المبادئ الأولى فى هذا الوجود.

والعقل الإنسانى نور من نور الله، أو كما يقول الغزالى: "أنموذج من نور الله." [٢]

وبهذا النور يحاول العقل أن يكشف "مجاهل الوجود وشعابه فيتتبع الموجودات ويحاول أن يدرك ماهياتها وحقائقها مرتقيا من علة إلى علة حتى يصل إلى الغاية القصوى التى هى العلة الأولى والتى كان كل شيء بها ومن أجلها." [٣]

ثم يعود هذا العقل مرة أخرى إلى تأمل هذا الكون ناظرًا فيه من جديد، ومكونًا لنفسه صورة واضحة عنه، ومفسرًا كيفية انسجام الأشياء فى ذاته وفيما حوله مما هو خارج عن ذاته.

---

(١) مبادئ الفلسفة لرابوبرت –ترجمة أحمد أمين ص ١–٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥.

(٢) مشكاة الأنوار للغزالى ص٤٤ –تحقيق د. أبو العلا عفيفى – القاهرة ١٩٦٤.

(٣) تاريخ الفلسفة العربية –تأليف حنا الفاخورى وخليل الجر ص٧ – بيروت ١٩٦٦.

ومن ذلك يتضح أنه على الرغم من نفور جمهور الناس من التفلسف وتشكيكهم فى جدية الفلسفة وقيمتها، ومحاولتهم صرف الإنسان عن البحث فى قضاياها الكبرى –على الرغم من ذلك كله، فإننا جميعًا من عامتنا إلى خاصتنا نتفلسف، بدرجات متفاوتة، وإن كان البعض منا لا يرد أن يسلم بأنه يتفلسف. [١]

فالفلسفة فى وقاع الأمر ليست بالشىء الدخيل على الإنسان، فحياته حلقات متصلة من الفكر والتأمل. وهذا يتبين لنا أن الفلسفة ليست نبتًا غير طبيعى فى المجتمع، وإنما هى ظاهرة إنسانية ملازمة لوجود الإنسان، ولن تزول هذه الظاهرة من الحياة طالما كان هناك إنسان فى هذا الوجود.

إن الذى يرفض الفلسفة أو ينكرها هو فى حقيقة الأمر يتفلسف، لأنه لا ينطلق من فراغ، فهو يحاول أن يجد له أرضًا صلبة يقف عليها ويطلق منها سهامه إلى الفلسفة، أى أنه يحاول بناء وجهة نظر مضادة يجتهد فى أن تكون منطقية ومتينة ومستندة إلى أسس قوية، وهذا يعنى فى النهاية أنه يتفلسف. [٢]

وليست الفلسفة مجرد دراسات نظرية منعزلة عن حياة الناس اليومية بعيدة عن التأثير فيها، وإنما هى نظرة إجمالية فى الكون، واتجاه فكرى عام نحو الحياة فى مجموعها. وهذه النظرة، وهذا الاتجاه الفكرى يؤثر بطبيعة الحال فى تصرفاته اليومية، وفى معالجتنا للحوادث التى تمر بنا، بمقتضاها نسير فى عملنا، ونواجه النظم الطبيعية والاجتماعية التى تحيط بنا وتحدد ميولنا نحوها، وتصرفاتنا تجاهها. [٣]

وعندما نقول أن كل إنسان يتفلسف فليس معنى ذلك أن كل الناس فلاسفة بالمعنى الاصطلاحى، فالفيلسوف ليس هو ذلك الشخص الذى يبدأ فقط بالتفلسف وإنما هو الذى يستمر فى مواصلة التفلسف حتى النهاية، فلا يكتفى بدرجة التفكير التى يمارسها المرء فى حياته العملية وحاجاته الوقتية، ولكنه يفحص نتائج الفكر العادى فى محاولة للبلوغ إلى وضوح تام، فى حين تظل الحقيقة فى التفكير العادى أمرًا تقريبيًا معتقدًا. [٤]

ومن هنا يمكننا أن نقسم مراتب الفكر عند البشر إلى ثلاث مراتب:

([١]) البراجماتزم ليعقوب فام ص ٤٠ – القاهرة ١٩٣٦.

([٢]) كتابنا: تمهيد للفلسفة ص١٦ – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦.

([٣]) البراجماتزم ص٣٣.

([٤]) كتابنا: تمهيد للفلسفة ص١٧.

المرتبة الأولى: هى مرتبة الفكر العادى التى تتمثل فى انصراف الفرد إلى تدبير أمور حياته العملية ومعالجة مشاكله اليومية الجارية: أمور معاشة ومعاملاته وعلاقاته مع الناس.

والإنسان –فى العادة– لا يقف عند هذه المرتبة من الفكر العادى، وإنما تسلمه بالضرورة إلى **مرتبة ثانية** يمكن أن تسمى بالفلسفة الخاصة التى تمثل مجموعة المبادئ والمعتقدات التى ينظر من خلالها الفرد إلى الحياة والأشياء، والتى تمثل أيضا القواعد التى يعتمدها فى سلوكه وتعامله مع الآخرين، وفى تقييمه أو حكمه على الناس والأشياء. وتقنع الغالبية العظمى من الناس بالوقوف عند هذه الدرجة.

ولكن هناك **مرتبة ثالثة** من التفكير تتعدى هذا النطاق. وتلك هى المرتبة التى يحاول فيها المرء البحث عن تأصيل نظرى لهذه المبادئ والمعتقدات قصد الوصول إلى أسس ومقومات نظرية تدعمها، وفى هذه المرتبة فقط من المفكر يصبح الإنسان باحثًا فى الفلسفة.[١]

٣– صلة الدين بالفلسفة:

من الثابت أن الفكر الفلسفى قد نشأ وترعرع فى حضن الدين. فقد كان الارتباط بين الفلسفة والدين وثيقًا منذ القدم حتى كان التفكير الفلسفى ممتزجًا بالتفكير الدينى، وقد قيل فى هذا الصدد تلك العبارة المشهورة التى تقول: "إن الفلسفة بنت الدين وأم العلم".

وليس هناك فى حقيقة الأمر خلاف بين الهدف الذى يسعى إليه كل من الدين والفلسفة، فالفلسفة تهدف إلى: "معرفة أصل الوجود وغايته، ومعرفة سبيل السعادة الإنسانية فى العاجل والآجل" وهذان المطلبان اللذان يشكلان موضوع الفلسفة بقسميها النظرى والعلمى "هما كذلك موضوعا الدين بمعناه الشامل للأصول والفروع".[٢]

ولكن هناك من ناحية أخرى فرقًا بين المعرفة الفلسفية والمعرفة الدينية من حيث وسيلة هذه المعرفة، فهذه الوسيلة هى العقل فى الفلسفة والوحى فى الدين. ويترتب على ذلك أن العقل فى الفلسفة قد يرى أحيانًا جانبًا واحدًا من الصورة أو من الحقيقة، وهذا يفسر لنا وجود العديد من المذاهب الفلسفية لتفسير الحقيقة التى هى من ذاتها حقيقة واحدة مطلقة.

وتعبر قصة العميان والفيل –وهى أسطورة هندية قديمة نسبت إلى أفلاطون– تعبر هذه القصة عما نحن فيه من اختلاف المذاهب الفلسفية أصدق تعبير. وقد ذكر أبو حيان التوحيدى القصة فى المقابسات على النحو التالى:

---

(١) مقدمة فى الفلسفة العامة: د. يحيى هويدى ص ١٢/١١ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥.

(٢) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص٥٣ – القاهرة ١٩٥٢.

"سمعت أبا سليمان يقول: قال أفلاطون: إن الحق لم يصبه الناس فى كل وجوهه ولا أخطأوه فى كل وجوهه، بل أصاب منه كل إنسان جهة. قال: ومثال ذلك عميان انطلقوا إلى فيل وأخذ كل واحد منهم جارحة منه فجسها بيده ومثلها فى نفسه، فأخبر الذى مس الرجل أن خلقة الفيل طويلة مدورة شبيهة بأصل الشجرة وجذع النخلة، وأخبر الذى مس الظهر أن خلقته شبيهة بالهضبة العالية والرابية المرتفعة، وأخبر الذى مس أذنه أنه منبسط دقيق يطويه وينشره. فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك، وكل يكذب صاحبه ويدعى عليه الخطأ والغلط والجهل فيما يصفه من خلق الفيل. فانظر إلى الصدق كيف جمعهم، وانظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم حتى فرقهم!". [١]

وقد اتخذ خصوم القول بحقيقة مطلقة هذه القصة دليلا على نسبية الحقيقة زاعمين أنه لا توجد حقيقة مطلقة، ولكن القصة فى الواقع لا تبرهن بشىء ضد طابع الحقيقة المطلق. فقد عبر هؤلاء العميان عن قضيتهم تعبيرًا غير دقيق، ولو أن كل واحد منهم قال: إن الفيل –طالما أن الأمر يدور حول العضو الذى لمسته– مثل شجرة... الخ فإن القضية حينئذ تكون قضية صادقة لا غبار عليها. [٢]

وفى مقابل المعرفة الفلسفية التى هى معرفة إنسانية لا يجوز عليها الخطأ والصواب نجد أن المعرفة الدينية المبنية على الوحى الإلهى الموثوق بصحته معرفة معصومة من الخطأ وتعطينا الحقيقة كاملة دون مجهود عقلى يبذل من جانبنا. فالحقائق الدينية تعد حقائق كاملة جاهزة –إن صح التعبير– ولكن يبقى مع ذلك أن أصول الاعتقاد عقلية، ومن هنا يقول الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد:

لقد تقرر بين المسلمين كافة –إلا من لا ثقة بدينه ولا بعقله– أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا عن طريق العقل كالعلم بوجود الله وإرسال الرسل وإدراك فحوى الرسالة والتصديق بها، كما أجمعوا على أن الدين إذا أتى بشىء يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل. [٣]

وهذا يبين لنا أن هناك تكاملاً بين العقيدة الدينية والمعرفة الفلسفية، فهذه تدعم تلك. ومعارف العقل لا يمكن بحال من الأحوال أن تتناقض مع المعارف الدينية القائمة على الوحى ومن أجل ذلك يقول الإمام الغزالى:

---

(١) المقابسات لأبى حيان التوحيدى ص٢٥٩ وما بعدها – المكتبة التجارية الكبرى – مصر ١٩٢٩.

(٢) مدخل إلى الفكر الفلسفى ليوخينسكي، ومن ترجمتنا ص٦٧– الأنجلو المصرية ١٩٨٠.

(٣) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص٤٥، ٥٣ – دار إحياء العلوم – بيروت ١٩٧٩.

"العقل كالأساس والشرع كالبناء، ولن يغنى أساس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس.. فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان، بل متحدان".[١]

فكل منهما يكمل الآخر ولا يمكن فصلهما عن بعضهما، تمامًا مثل الأساس والبناء اللذين لا يقوم أى منهما دون الآخر. ومجالات الدين والعقل تتاخم بعضها بعضًا، ومهمة العقل تتمثل –فى نظر الغزالى– فى قيادتنا إلى الدين وتسليمنا إليه، وفى ذلك يقول الغزالى فى المنقذ من الضلال "الأنبياء أطباء أمراض القلوب، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك، ويشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن إدراك ما يدرك بعين النبوة، وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين، وتسليم المرضى إلى الأطباء المشفقين. وإلى ههنا مجرى العقل ومخطاه، وهو معزول عما بعد ذلك إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه"[٢]

وهذا يوضح لنا بجلاء علاقة العقل بالوحي. فالعقل هنا له وظيفتان هامتان:

أولا: إرشادنا إلى الوحى والتصديق بالنبوة.

ثانيًا: القيام بإدراك الموحى به وتفهمه.

وهكذا يتضح لنا أن المعرفة الفلسفية –وإن شئت قلت المعرفة العقلية وهما هنا بمعنى واحد– ضرورية لدعم المعرفة الدينية.

ومن هنا لا يجوز أن يكون هناك تناقض بين العلوم العقلية والعلوم الشرعية، وقد أكد ذلك الغزالى فى الإحياء حيث يقول: "وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن، ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة نعوذ بالله منه، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما. فيظن أن تناقض فى الدين، فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين".[٣]

٤– موقف الإسلام من الفكر الفلسفى:

للفلسفة فى شتى عصورها تعريفات مختلفة بعضها شامل وبعضها يركز على جانب من الجوانب، ولكنها جميعًا تتكامل فى النهاية ويمكن ردها جميعًا إلى قضايا الفلسفة الرئيسية وهي: الله والعالم والإنسان. وما دام الإنسان يعيش فى هذا الكون فلابد أن يعرف مكانه فى هذا الوجود، وعلاقته بالكون ومن فهى وما فيه، وعلاقته بخالق الكون.

---

(١) معارج القدس للغزالى ص٤٦ – المكتبة التجارية الكبرى (دون تاريخ)

(٢) المنقذ من الضلال ص١٤٦ وما بعدها – دمشق ١٩٣٤.

(٣) إحياء علوم الدين ج٣ ص١٧ – طبع مصطفى البابى الحلبى – القاهرة ١٩٣٩.

obeikandl.com

وقد اهتم الإسلام بالعقل الإنسانى اهتمامًا كبيرًا وهيأ لـه الظروف المناسبة، وأزال من طريقه العقبات حتى يستطيع ممارسة دوره كاملاً فى هذا الوجود. ومن هنا رفض الإسلام التقليد الأعمى، وقضى على الخرافات والأوهام، وغرس العزة فى نفس المؤمن وحرره من عقدة الخوف من أى كائن مخلوق، وقرر المسئولية الفردية، وقد كان ذلك كله بمثابة تمهيد الطريق أمام العقل الإنسانى ليمارس وظيفته التى خلق من أجلها. [1]

وبالإضافة إلى ذلك فإن مبدأى التوحيد وختم النبوة يعدان بمثابة رفع الوصاية عن العقل الإنسانى، فليس هناك مكان لأحد بعد ذلك لادعاء الاتصال بالله وفرض تعاليم على الناس باسم الدين. فالدين قد اكتمل والعقل قد نضج، ولا مكان لزعزعة الدين ولا للتشويش على العقل.

وقد حث القرآن الكريم على النظر والتفكر والتأمل فى هذا الكون، ودفع العقل دفعًا إلى القيام بوظيفته التى خلق من أجلها وهى التفكير الذى يعد حقًا طبيعيًا للإنسان وغريزة فطرية مثل حقه فى الحياة. ومن هنا كان الحفاظ على العقل حتى يستطيع القيام بأداء وظائفه المشروعة من بين المقاصد الخمسة للشريعة الإسلامية، مثل الحفاظ على الحياة نفسها. والإنسان دون تفكير ليس إنسانًا على الحقيقة، بل هو كائن تنازل عن إنسانيته وارتضى لنفسه أن يكون فى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان الأعجم.

ومن هنا عاب القرآن على هؤلاء الذين لا يفكرون، أى لا يستخدمون عقولهم. بل يصمون حواسهم وعقولهم عن طلب المعرفة أو الفهم. وبذلك يعطلون وسائل المعرفة لديهم من حس وعقل عن أداء وظائفهما التى أرادها الله. وفى هذا الصدد يقول القرآن الكريم:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ﴾[2]

ومن أجل ذلك فإن تعطيل العقل عن أداء وظيفته يعد –فى نظر الإسلام– ذنبًا من الذنوب التى يمكن أن تلقى بصاحبها فى النار يوم القيامة. وهذا ما يؤخذ من الآية الكريمة:

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾[3]

ومن هنا كانت دعوة القرآن الكريم المتكررة إلى الإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية حيث يقول:

---

(1) كتابنا: دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى ص١٣–١٦ – دار المنار – ١٩٨٩.

(2) سورة الأعراف: ١٧٩.

(3) سورة الملك: ١٠–١١.

﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْض﴾[1] ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ؟﴾ [2]

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3] ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[4]

وغيرها من الآيات العديدة فى هذا الشأن.

ولذلك قرر ابن رشد أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها، وذلك أخذًا من قوله تعالى: ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيءٍ**﴾[6]

وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تعد واجبًا دينيًا فى الإسلام فإنها من ناحية أخرى تعد مسئولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك منها، وسيحاسب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها مثلما يسأل عن استخدامه لباقى وسائل الإدراك الحسية. وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾[7]

وقد قدم القرآن الكريم العديد من الشواهد والأمثلة التى تساعد العقل الإنسانى على شق طريقه وأداء دوره. ومن بين هذه الشواهد ما يلى: [8]

أولا: يعرض القرآن بكل أمانة ودقة آراء المخالفين ثم يتبعها بالرد الحاسم القائم على المنطق السليم وقوانين الفطرة السليمة، فقد ذكر وجهات نظر الوثنيين والدهريين والماديين والكفار والمنافقين، وعقب عليها تعقيبًا مقنعًا مستخدمًا فى ذلك أنصع البراهين وأقوى الأدلة.

فالكفار مثلاً حين ينكرون البعث بعد الموت ويقولون: "ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر" يعقب القرآن على ذلك بقوله: ﴿ **وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ**﴾[9] وهنا يفرق القرآن الكريم بين الظن والعلم، موجها نظرنا إلى ضرورة فحص الأحكام والتأكد من مصدرها، وفى ذلك ما فيه من الدعوة إلى النقد الموضوعى.

---

(1) سورة يونس: ١٠١.

(2) سورة الروم: ٨.

(3) سورة الأعراف: ١٨٥.

(4) سورة الذاريات: ٢١.

(5) سورة الحشر: ٢.

(6) سورة الأعراف: ١٨٥.

(7) سورة الإسراء: ٣٦.

(8) كتابنا: دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى ص١٩ وما بعدها.

(9) سورة الجاثية: ٢٤.

ويحذر القرآن من إصدار الأحكام فى أمور لا علم للإنسان بها حتى لا يقع فى الخطأ والتناقض. فيقول: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾[1].

وعندما زعم الكفار أن الملائكة إناث عقب القرآن على زعمهم بقوله: ﴿ **أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ**﴾[2]. وهنا يريد القرآن الكريم أن يقول لهم: إن هذه الفكرة التى تزعمونها إذا كانت صحيحة فإنها لابد أن تكون مبنية على الملاحظة والمشاهدة اللتين هما وسيلتان من وسائل العلم والمعرفة الصحيحة.

ثانيًا: يعرض علينا القرآن الكريم قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه والنقاش العقلى الذى دار بينه وبينهم حول الألوهية، وما اشتمل عليه هذا النقاش من أدلة عقلية فى صورة متدرجة فى تسلسل منطقى رائع تحمل العقل على محاكاتها للوصول إلى نفس نتائجها وهى الوصول إلى اليقين الذى تشير إليه الآية الكريمة فى بداية القصة: ﴿ **وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ**﴾[3]

وبالإضافة إلى ذلك نجد أن الإسلام قد قدم عددًا من المبادئ الهامة التى كان لها أثر حاسم فى التطور الفكرى والحضارى للمسلمين. ومن بين هذه المبادئ مبدأ الاجتهاد والوسطية ووحدة الأصل الإنسانى، والتدقيق فى رواية الحقائق التاريخية، والتوجيه إلى استخلاص القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية، تلك القوانين التى يعبر عنها القرآن بأنها سنن الله.

وعلى الجملة فإننا إذا تأملنا آيات القرآن الكريم فإننا نستطيع أن نستخرج منها أصول المعرفة بالحقائق الكبرى وهى: الله والكون والإنسان والقيم، وكذلك أصول تنظيم الحياة العملية وتشكيل الأخلاق، ونجد فيه أيضًا منهجًا لتحصيل المعرفة الحسية التجريبية والمعرفة النظرية.[4] ولا يوجد دين من الأديان مهد الطريق أمام العقل الإنسانى على هذا النحو إلا الإسلام.

٥- مجالات النشاط الفكرى فى الإسلام:

لقد فتح الإسلام مجال النشاط الفكرى أمام الإنسان على مصراعيه وأطلق الطاقات الفكرية للإنسان إطلاقًا لا حد له. ومن هنا رأيناه يجعل الكون كله بأرضه وسمائه وما بينهما مجالاً للنشاط الفكرى للإنسان. وفى ذلك يقول القرآن الكريم: (**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا**

---

(1) سورة الإسراء: ٣٦.

(2) سورة الزخرف: ١٩.

(3) سورة الأنعام: ٧٥.

(4) كتابنا: دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى ص ٢٢، ٣٢.

فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. والتفكر الذى تنص عليه الآية هنا أمر جوهرى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان، فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون فلا يجوز له أن يقف منه موقف اللامبالاة، بل ينبغى أن يتخذ لنفسه منه موقفًا إيجابيًا، وإيجابيته تتمثل فى درسه والنظر فيه وصولاً إلى معرفة خالقه من ناحية، ومن ناحية أخرى للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير، والإفادة من كل هذه المسخرات فى هذا الكون لا تكون إلا بالعلم والدراسة والفهم والتأمل باستخدام كل الملكات العقلية والحسية، والنظر فى ملكوت السموات والأرض على هذا النحو سيؤدى إلى الرقى المادي، وفى الوقت نفسه إلى الرقى الروحى.[2]

وقد جمع القرآن الكريم القضايا الرئيسية للفلسفة فى آية واحدة فى معرض الحث على النظر فيها وصولاً إلى الحق المطلق الذى هو فى النهاية غاية كل فيلسوف جاد. وذلك واضح تمام الوضوح فى قوله تعالى: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾**[3].

والمتأمل فى هذا الترتيب الوارد فى هذه الآية يجد أن هذا هو نفس الترتيب الذى سار عليه فلاسفة اليونان بدءا بالكون الذى هو أول ما يبصره الإنسان حين يفتح عينيه ومرورًا بالإنسان –الذى أصبح محورًا للتفلسف فى عصر سقراط– ثم انتهاء بقضية الألوهية التى كانوا يسمونها: الفلسفة الأولى أو العلم الأعلى. وقد اكتملت حلقات هذه القضايا فى فلسفة كل من أفلاطون وأرسطو.

وهذا يعنى أن هذا الترتيب الذى جاء فى الآية المشار هو الترتيب الطبيعى الذى تقتضيه طبيعة هذه القضايا.

٦– قضية النزاع بين الدين والفلسفة:

النزاع بين الدين والفلسفة نزاع له قصة أفرد لها الباحثون كتبًا تتحدث عنها. وقد ألف الدكتور/ توفيق الطويل كتابًا فى هذا الموضوع بعنوان: قصة النزاع بين الدين والفلسفة.

وفى هذا الكتاب يرى أنه من استقراء تاريخ العقل مع الإيمان يتبين أنه لم يحدث بينهما نزاع أدى إلى استبعاد العقل واضطهاد أهله إلا إذا اجتمع أمران:

---

(1) سورة الجاثية: ١٣.

(2) كتابنا: دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى ص١٠.

(3) سورة فصلت: ٥٣.

obeikandi.com

١- أن تكون لدى رجال اللاهوت سلطة تمكنهم من اضطهاد العقل وأهله، فإن أعوزتهم السلطة قنعوا بالغيبة وانتقموا بالنميمة.

٢- أن يكون هناك عقل يجرؤ على اقتحام "المنطقة الحرام" التى حرمها رجال اللاهوت وارتياد آفاقها والانتهاء منها إلى اكتشاف مجهول أو إنكار مألوف.

وهكذا يجر العقل على نفسه بفضل جرأته ويقظته غضب واضطهاد خصومه. وبغير اجتماع هذين الأمرين لا يقوم نزاع أو صدام بين العقل والإيمان. [١]

وهذا النزاع التقليدى بين الدين والعقل أو بين الدين والفلسفة أو العلم بصفة عامة نزاع لا مكان له فى تعاليم الإسلام.

والأقرب إلى الصواب أن نقول إن التناقض بين الدين والفلسفة هو أصلاً فكرة راجت فى الأوساط الكنسية فى أوروبا فى العصور الوسطى.

وقد ساعد على تأجيج نار العداوة بين الدين والفلسفة ذلك الموقف الذى اتخذته الكنيسة الكاثوليكية فى أوروبا فى العصر الوسيط والذى تمثل فى تعقب المفكرين والعلماء فى كل مكان عن طريق محاكم التفتيش. وقد تعرف الكثيرون منهم للتعذيب والقتل لا لسبب إلا لأنهم كانوا يقولون بأفكار تتفق مع العقل وتتناقض مع مواقف الكنيسة التى لم تكن بالضرورة هى مواقف الدين من حيث هو دين.

وقد استغلت الرشدية اللاتينية فلسفة ابن رشد لترويج القول بما يسمى بالحقيقة المزدوجة وهو قول يؤكد التناقض بين الحقيقتين الدينية والفلسفية. وابن رشد فى الواقع برئ من هذا الزعم براءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب كما سنوضح ذلك فى الفصل التالى.

فلا يجوز من وجهة النظر الإسلامية وضع المسألة على أساس أن هناك خصومة بين الدين والعقل وأن الإنسان فى موقف الاختيار بينهما، فهما عنصران جوهريان يتلازمان ولا يتناقضان، والإنسان فى حاجة إليهما معا. والدين الصحيح لا يمنع العقل البشرى من التفلسف ومن حقه فى الفهم والتفكير فى ملكوت السموات والأرض. وإنما يدفعه إلى ذلك دفعًا. والإسلام يعتبر العقل مناط إنسانية الإنسان فإذا عطل بالجهل والغفلة والعمى مسخت بشرية الإنسان وهبط بذلك إلى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان. [٢]

---

(١) قصة النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور/ توفيق الطويل ص١١ الطبعة الثانية.

(٢) كتابنا: تمهيد للفلسفة ص٩١/٩٢.

والحديث عن قضية النزاع بين الدين والفلسفة يجرنا إلى الحديث عن اتهام الفلسفة بأنها مرادفة للإلحاد أو أنها دين من لا دين له.

لقد رد "فرنسيس بيكون" على هذا الاتهام بقوله:

"إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد، و لكن التعمق فيها ينتهى بعقول الناس إلى الإيمان.. وإذا ما صادف عقل الإنسان أسبابًا ثانوية مبعثرة (فى الطبيعة) فقد يقف أحيانًا عندها، ولا يتابع السير إلى ما وراءها، ولكنه إذا أنعم النظر فشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها فإنه لا يجد بدًا من الارتماء فى أحضان العناية الإلهية والتسليم لله"[1].

ويتضح لنا من خلال هذا النص أن الأمر على العكس تمامًا. فالفلسفة تؤدى إلى الإيمان لا إلى الإلحاد. أما السطحية فى الفكر التى تقف عند الأسباب الثانوية وعند ظواهر الأشياء فإنها هى التى يمكن أن تؤدى بصاحبها إلى الإلحاد.

وماذا يمكن أن يقول المرء عن وقفة "ديكارت" فى نهاية التأمل الثالث من كتابه "التأملات" حيث راح يتأمل جلال الله وعظمته ويعبر عن مدى انبهاره بنور الله الذى لا مثيل له؟ لنقرأ هنا نص كلماته التى تعبر عن عمق الإيمان وصدق اليقين بعظمة الله جل جلاله.

يقول "ديكارت":

"يبدو لى من الملائم جدًا فى هذا المقام أن أقف هنيهة وجيزة لكى أعاين هذا الإله ذا الكمال المطلق، ولكى أنعم النظر فى صفاته البديعة، ولكى أتأمل بهاء نوره الذى لا مثيل له، ولكى أتعشقه وأتعبد له، على الأقل بقدر ما فى وسعى وما تسمح به قوة ذهنى الذى كأنما يرتد من هذا التطلع مبهورًا. فكما أن الإيمان يعلمنا أن الغبطة العظمى فى الحياة الأخرى إنما تنال بهذه المعاينة للجلالة الإلهية، كذلك تعلمنا التجربة ولا تزال بأن تأملاً كهذا، وإن يكن بعيدًا كل البعد عن الكمال، يتيح لنا أن نظفر من الرضا بأكبر قسط نستطيع أن ننعم به فى هذه الحياة"[2].

٧- موقف فلاسفة المسلمين من الفلسفة اليونانية:

قبل أن نتحدث عن هذه النقطة نود أن نقدم لها بملاحظة أساسية فى هذا الصدد وهى أنه لا توجد فلسفة من الفلسفات منذ كان هناك تفلسف حتى الآن يمكن أن تدعى لنفسها أنها هى

---

(1) أعلام الفلسفة: هنرى توماس – ترجمة مترى أمين ص٢١٠ – القاهرة ١٩٦٤.

(2) التأملات لديكارت ص١٥٧ – ترجمة د. عثمان أمين – الأنجلو المصرية ١٩٥١ (أيضا كتابنا: دراسات فى الفلسفة الحديثة ص١١١ – القاهرة ١٩٨٨).

وحدها الفلسفة الوحيدة المطلقة. فالمذاهب الفلسفية العديدة تعد وجهات نظر قد تقترب أن تبتعد عن الحقيقة، ولكن لا شك أن فى كلا منها جانبًا من جوانب الحقيقة. فالبناء الفلسفى بناء تشترك فى الأجيال، ويضيف إليه كل جيل شيئًا جديدًا يمهد به السبيل لمن يجئ بعده. فالكلمة الأخيرة فى الفلسفة لم يقلها جيل بعينه، وإلا أصيب الفكر بالجمود وحكم عليه بالعقم الأبدى. وفى هذا الصدد يقول أبو بكر الرزاى:

"أعلم أن كل متأخر من الفلاسفة إذا صرف همته إلى النظر فى الفلسفة وواظب على ذلك واجتهد فيه وبحث عن الذى اختلفوا فهى لدقته وصعوبته عَلِم عِلم من تقدمه منهم وحفظه واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أخرى، لأنه مهر يعلم من تقدمه وفطن لفوائد أخرى واستفضلها، إذ كان البحث والنظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل"[١].

وإذا كان الأمر كذلك فإن الفلسفة اليونانية التى وصلت إلى المسلمين لا يمكن أن تؤخذ على أنها الحق بعينه، بل يجب أن توضع فى إطارها الصحيح، وهو أنها تمثل وجهات نظر لها ظروفها وعصرها، ومن ناحية أخرى يجب أن يتم تقييمها أولاً بمقياس عصرها، ولا شك فى أنها كانت فى ذلك العصر الذى ظهرت فيه تعد خطوة متقدمة وفتحًا جديدًا فى عالم الفكر.

وإذا كان الغزالى قد قام بنقد الاتجاهات الفلسفية اليونانية فليس معنى ذلك أنه كان يرفض التفكير الفلسفى، بل الأمر على العكس من ذلك تمامًا. فقد كان طول حياته نموذجًا رائدًا للعقلية الفلسفية الواعية. ومعلوم أن "ديكارت" أيضًا قد نقد هؤلاء الذين وقفوا مقلدين لأفلاطون وأرسطو بدلاً من السعى إلى الوصول إلى شىء أفضل[٢] ومعلوم أيضًا أن "كانت" قد نقد المذاهب الفلسفية السابقة. ولم يقل أحد إن "ديكارت" أو "كانت" بذلك يرفض التفكير الفلسفى.

ومع أن الغزالى قد هاجم الفلسفة اليونانية هجومًا عنيفًا فى كتابه تهافت الفلاسفة كما ظهرت فى فلسفة كل من الفارابى وابن سنيا إلا أنه قد اعترف بصحة وأهمية بعض العلوم الفلسفية.

ففى كتابه "المنقذ من الضلال" يقسم الغزالى علوم الفلاسفة إلى رياضيات ومنطقيات وطبيعيات وسياسيات وخلقيات وإلهيات، ويرى أنه لا يجوز رفض أو جحد الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات باستثناء بعض المسائل فى الطبيعيات وعلى رأسها مسألة السببية أما السياسيات فإنه لا يرفضها ولكنه يرى أن الفلاسفة أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء،

---

(١) مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى لروزنتال ص١٨٥ – ترجمة أنيس فريحه – بيروت ١٩٨٠.

(٢) كتابنا: المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت ص٨٦ هامش ٢ – دار القلم بالكويت ١٩٨٣.

وأما الخلقيات فيرى أنهم أخذوها من المتصوفة ويعنى بهم المتألهين الذين وجدوا ويوجدون فى كل عصر[1].

أما الهجوم العنيف الذى وجهه الغزالى إلى هذه الفلسفة. فقد انصب على قسم الإلهيات وبخاصة مسائل قدم العالم وعلم الله بالكليات والبعث بالروح فقط.

ومعلوم أن الغزالى كان من أشد الناس تحمسًا للمنطق الأرسطى وقد ألف الغزالى فيه عدة كتب هى: معيار العلم، ومحك النظر، والقسطاس المستقيم، وكتب فضلاً عن ذلك مقدمة مطولة فى المنطق لكتابه "المستصفى من علم الأصول" واعتبر المنطق –كما يقول فى هذه المقدمة– بمثابة مقدمة ضرورية لكل علم على الإطلاق.

وهكذا ينبغى أن نفرق بين نقد فلسفة ما من الفلسفات ورفض التفكير الفلسفى. فنقد فلسفة ما أمر عادى وليس فيه بأس، بل هو على العكس أمر مطلوب تقتضيه طبيعة الفلسفة ذاتها، أما التفكير الفلسفى من حيث هو فهذا أمر لا فكاك للعقل الإنسانى منه لأنه جوهر طبيعة هذا العقل. والذى يرفض التفكير الفلسفى بصفة عامة مثله مثل من يحاول أن يمنع ضوء الشمس بوضع يده أمام أشعتها، فهذا الأمر ضد طبيعة الأشياء.

ولم يكن الغزالى وحده هو الذى قام بنقد الفلسفة اليونانية. ففلاسفة المسلمين بصفة عامة –وإن كان البعض منهم قد بالغ فى تقدير قيمة هذه الفلسفة –كانت لهم نظرات نقدية فى هذا الصدد، غير أن الغزالى كان أكثر تفصيلاً وأكثر وضوحًا.

فالكندى –وهو أول فيلسوف عربى مسلم– لم يتردد فى أن "يخالف أرسطو فى قدم العالم، ويؤكد العناية الإلهية وصفات الإله المبدع الفعال المدبر الحكيم، ويخرج من نظره الفلسفى بوجهة نظر عامة تقوم على فهم الدين بالعقل الفلسفى، وينتهى إلى مذهب دينى فلسفى معا." [2]

وهذا يبين لنا أنه منذ البواكير الأولى للفكر الفلسفى الإسلامى نجد أن الدين والفلسفة يتعانقان، ويتجاوران فى عقول فلاسفة الإسلام، وهنا لابد من افتراض وجود منطلق ثابت وراء التقاء الحقيقة الدينية بالحقيقة الفلسفية، أو وجود خلفية دينية تصحح وحدة الغاية والهدف بين الدين والفلسفة عند مفكرى المسلمين. ويتمثل هذا المنطق الأساسى أو الخلفية الدينية فيما يمكن أن نسميه "وحدة الحقيقة" فى الإسلام.

---

(1) المنقذ من الضلال ص٨٨ وما بعدها.

(2) الكندى وفلسفته للدكتور/ محمد عبد الهادى أبو ريده ص٥٨ – دار الفكر العربى – ١٩٥٠.

وقد ظهر أثر هذه "الوحدة" فى فكر فلاسفة المسلمين بصفة عامة، الأمر الذى جعل البعض يصف الفلسفة الإسلامية بأنها فلسفة توفيقية تنحو نحو التوفيق بين العقل والوحى.

وهكذا نجد أن الفارابى يرى أن موضوعات الفلسفة وموضوعات الدين واحدة، وأن كلا منهما "يعطى المبادئ القصوى للموجودات، فإنهما يعطيان علم المبدأ الأول والسبب الأول للموجودات، ويعطيان الغاية القصوى التى لأجلها كون الإنسان وهى السعادة القصوى"[١].

ويرى الفارابى أن الفلسفة الصحيحة لا تتناقض مع الدين الصحيح، فإن بدا هناك بعض النفور أو التناقض بين الطرفين فما ذلك إلا لأن النظام الفلسفى الذى تناقض مع الدين يعتبر نظامًا واهيًا لم تكتمل فيه البراهين المؤدية إلى اليقين. فالحقيقة واحدة لدى الفارابى ولكن الطريق إليها متعدد.

أما ابن سينا فإنه يرى أنه لا يوجد فى أقسام الفلسفة ما يخالف الدين أو يتعارض معه، ويرجع ضلال أدعياء الفلسفة وانحرافهم عن منهاج الشرع إلى قصور فى تفكيرهم وعجز فى أفهامهم وفى ذلك يقول:

"لقد ظهر أنه ليس شىء منها (أى الفلسفة) يشتمل على ما يخالف الشرع فإن الذين يدعونها ثم يزيغون عن منهاج الشرع إنما يضلون من تلقاء أنفسهم ومن عجزهم وتقصيرهم لا أن الصناعة نفسها توجيه، فإنها بريئة منهم"[٢].

ومن حقنا أن نطبق ما يقوله كل من الفارابى وابن سينا حول الفلسفات التى تنحرف عن منهاج الشرع على فلسفة كل منهما إذا وجدنا فيها ما يخالف الشرع أو يتناقض معه.

أما ابن رشد فإنه قد بين فى بداية كتابه "فصل المقال" أن النظر فى كتب القدماء أمر واجب بالشرع ما دام الهدف الذى يقصدون إليه هو ذات المقصد الذى حثنا عليه الشرع وهو: النظر العقلى فى الموجودات وطلب معرفتها واعتبارها، غير أن النظر فى كتب القدماء يتطلب عقلية ناقدة واعية لا تعتمد إلا ما يوافق الحق الذى جاء به الدين، وهنا يقول ابن رشد:

"ننظر فى الذى قالوه من ذلك، وما أثبتوه فى كتبهم، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عله، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرناهم منه وعذرناهم"[١].

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق ص٧٨، وتأملات فى الفكر الإسلامى للدكتور/ محمد كمال جعفر ص٧٨ – القاهرة ١٩٨٠.

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٦١.

أما الحكمة من حيث هى حكمة ويعنى بها الفلسفة فإنها فى نظر ابن رشد "صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة – وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة"[٢].

وبناء على ذلك فإن إثارة أى نوع من أنواع العداوة بينهما إنما يرجع –فى رأيه– إلى أصحاب الأفهام الفاسدة والاعتقادات المحرفة أو يرجع إلى الأصدقاء الجهال.

٨- خاتمة:

وفى الختام يبقى هناك سؤال لعله يدور فى أذهان البعض:

ما فائدة إثارة هذه القضية الآن؟ أو بعبارة أخرى: ماذا يعنى هذا الموضوع بالنسبة لعصرنا؟

وإجابتنا عن ذلك تتلخص فى الأمور التالية:

أولا: يعد التفكير قيمة من القيم التى حرص الإسلام على العناية بها والاهتمام بأمرها، وتوفير كل الظروف الملائمة لجعلها واقعًا حيًا بين الناس، لأنها وظيفة العقل الذى من أجله استخلف الله الإنسان فى الأرض، والتفكير الفلسفى يساعدنا على الحفاظ على هذه القيمة نقية من الشوائب بالتخلص من الكثير من الأوهام والخرافات التى يرفضها الدين أيضًا، ويساعدنا على تجنب إصدار الأحكام المطلقة فى المسائل الخلافية، ويساعدنا على التحرر من التقليد الأعمى الذى حذر منه النبى ﷺ فى حديثه الشريف: "لا تكونوا إمعة"، ويساعدنا فى مهمة البحث عن اليقين فى شتى المسائل الفكرية بأدلة المنطق وبراهين العقل حتى لا نظل أسرى الظنون التى لا تغنى من الحق شيئًا.

ثانيا: الدعوة الإسلامية فى عالم اليوم –وبخاصة فى العالم الخارجى– فى حاجة ماسة إلى عقلية فلسفية تعرض الإسلام عرضًا يتناسب مع المستويات الفكرية والثقافية المعاصرة، كما أن قطاعًا كبيرًا من المثقفين فى عالمنا الإسلامى فى حاجة أيضًا إلى مثل هذا العرض الفلسفى للإسلام.

ثالثا: المذاهب السياسية والتيارات الفكرية والاقتصادية والأيديولوجيات المختلفة التى يموج بها عالم اليوم لا يمكن فهمها فهمًا سليمًا إلا بالرجوع إلى أصولها الفلسفية. فكل منها يعتمد على أصول فلسفية لابد من دراستها وفهمها لمعرفة خلفيات التيارات التى تتصارع فى عالمنا المعاصر، ونحن المسلمين لا نعيش وحدنا فى هذا العالم الذى أصبح مثل قرية صغيرة، ومن هنا

---

(١) فصل المقال لابن رشد ص١٣ (ضمن: فلسفة ابن رشد – المكتبة المحمودية التجارية ١٩٦٨).
(٢) المرجع السابق ص٣٥/٣٦.

فلابد من فهم ودراسة ما يدور حولنا حتى لا نخدع أو نضلل وإلا فإن الطوفان سيجرفنا فى تياره، ولن نستطيع المواجهة إلا بالدراسة الواعية والفهم العميق والأفق الواسع والعقلية الفلسفية الناقدة، ومن هنا فلا مفر من التفكير الفلسفى.

رابعا: الفلسفات الإلحادية تعد من الفلسفات التى وقفت فى منتصف الطريق الفلسفى، وقفت عند الأسباب الثانوية القريبة، وعجزت عن الاستمرار فى طريق التفلسف حتى النهاية كما أشار "فرنسيس بيكون" وهى فلسفات لم تكتمل فيها البراهين الفلسفية الموصلة إلى اليقين حسب منطق فلسفة الفارابى، وتدل على عجز فى أفهام أصحابها وقصور فى عقولهم بناء على فلسفة ابن سنيا. ومن هنا فكل فلسفة إلحادية لا يمكن أن تحسب على الفلسفة من حيث هى فلسفة.

خامسًا: لقد استبعد "ديكارت" –أبو الفلسفة الحديثة– من مجال الشك الذى عرف به العقائد الدينية وقواعد الأخلاق، وحصر منهجه الشكر فى الأمور النظرية، وهذا درس من الثقافة الغربية الأصيلة ينبغى أن يتعلمه بعض أبناء المسلمين الذين يبحثون فى "قمامة" بعض الثقافات الأجنبية عن أباطيل بعض المستشرقين التى تشكك فى أصول الإسلام، ويقومون بترويجها بين المسلمين خدمة لأعداء الإسلام.

سادسًا: وأخيرًا نود مرة أخرى أن نؤكد أن الفلسفة الصحيحة لا تعادى الدين، والدين الحق لا يقف حجر عثرة أمام التفكير الفلسفى، ومن ناحية أخرى لم يحدث أن حورب التفكير الفلسفى بالسيف فى المجتمع الإسلامى على مدى تاريخ المسلمين الطويل، وما حدث من هذا القبيل كانت وراءه أسباب سياسية أو غيرها من أسباب لم تكن تمت إلى مجال الفكر بصلة.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.